الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن سلاطين المماليك

إعداد

الدكتور

صبحي عبد المنعم محمد

أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي

كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن سلاطين المماليك

د/ صبحي عبد المنعم محمد
أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي
كلية دار العلوم – جامعة الفيوم

المقـــدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد النبي الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين سيدنا محمد النبي الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فارتباط مصر وصلاتها ببلاد الحجاز موضوع تناولته الدراسات العديدة منذ أقدم العصور إلى اليوم وتعددت فيه الرؤي السياسية نظرًا للصلات الوطيدة بين البلدين والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ نتيجة القرب الجغرافي بينهما فقد كانت – وما زالت – أنظار ساكني مصر تهفو دائمًا تجاه الحرمين الشريفين وقلوبهم تمتلئ حبًا لهما ورغبة في القرب منهما حيث مهبط الوحي وموطن الرسالة والنبوة.

ولقد ارتبط أهل الحجاز بمصر منذ أقدم العصور نتيجة التقارب الجغرافي كما أن الصلات بينهما لم تنقطع أبدًا بعد الفتح الإسلامي وحتى قيام الدولة الفاطمية الشيعية التي حرص خلفاؤها على إظهار ودهم لأمراء الحجاز ودعمهم لهم لأنهم ينتسبون للبيت العلوى الذي انتسب إليه الفاطميون أيضًا وحين سقطت الدولة الفاطمية وتولي الأيوبيون الحكم ظلت العلاقات طيبة بين البلدين

Scanned by CamScanner

إلى أن استطاع بنو رسول حكام اليمن فرض سيطرتهم على الحجاز وبخاصة حين ضعفت الدولة الأيوبية.

ولما سقطت دولة بني أيوب وقامت دولة سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧) استطاعوا فرض سيطرتهم المباشرة على الحجاز.

ولقد نالت المدينة المنورة الكثير من اهتمامات سلاطين المماليك نظرًا للمكانة الخاصة التي تمثلها المدينة المنورة عند المسلمين ففيها ثاني الحرمين الشريفين وإليه تشد الرحال، وكانت أول عاصمة للدولة الإسلامية حيث كانت الانطلاقة الأولى منها لنشر الإسلام بين شعوب العالم ومن تكون له السيطرة عليها يصبح له مكانة خاصة في نفوس المسلمين، فالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس أغدق على أهل المدينة الكثير من الأموال وأعطى الكثير من العائلات منحا سنوية وأعطي أهل البادية أعطيات كثيرة كما أصدر مرسومًا بحمل مائتي أردب غلة في كل سنة إلى المدينة النبوية.

كما أمر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بإسقاط المكوس والضرائب على المأكولات وهو شيئ مهم بالنسبة لأهل المدينة لأن تجارة الطعام المتداولة كانت هي التجارة الأولى لديهم، ولم يكتف الناصر محمد بن قلاوون بذلك بل أوقف على خدام الحرم النبوي الشريف قريتيين بمصر هما قرية نقادة وقرية سندبيس.

واهتم سلاطين المماليك بالمسجد النبوي الشريف الذي تعرض لكثير من أعمال التجديد والترميم، كما اهتموا بالحجرة النبوية الشريفة وبتجديد كسوتها، ولم يدخر المماليك وسعًا في العمل على راحة أهل المدينة والقضاء على الفتن والمنازعات التي كانت كثيرا ما تحدث بين الأشراف هناك.

Scanned by CamScanner

وهذا البحث سوف يتناول بالدراسة الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن سلاطين المماليك (٦٤٨ – ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ – ١٥١٧م) وأبرز السمات والملامح التي كانت تميزها في هذه الفترة.

وقد تناولت في المقدمة أهمية الموضوع والمنهج المتبع في دراسته ثم تناولت في التمهيد الناحية السياسية وانتقلت بعد ذلك للحديث عن طبقات المجتمع المدني زمن سلاطين المماليك وهم طبقات الأشراف العلويين ودورها في أحداث تلك الفترة، ثم طبقة أرباب الوظائف الدينية مثل وظيفة شيخ الحرم النبوي والقضاة والخطباء والقراء والمؤذنين ثم طبقة المجاورين ودور المماليك في رعايتهم ومساندتهم، وطبقة العبيد والأغوات ثم طبقة العامة.

وتحدثت في البحث عن العادات والتقاليد السائدة في المدينة المنورة آنذاك وبينت أن المدينة كانت سكنًا لعدة أجناس من البشر مما كان له أثره الواضح على عادات وتقاليد أهل المدينة حيث حدث اختلاط بين عادات تلك الشعوب الوافدة والسكان المحليين مما أدى إلى تبلورها وأصبحت الفوارق بينهما بسيطة تدريجيًا وصار الجميع يعتزون بتلك العادات والتقاليد.

ثم انتقلت للحديث بعد ذلك عن الملابس والأطعمة والأشربة حيث وضح البحث أن الملابس في المدينة المنورة زمن المماليك كانت تختلف باختلاف طبقات ومكانة أفراد المجتمع المدني.

أما الأطعمة فكانت تتنوع بتنوع المأكولات نظرا لتنوع الأجناس والجاليات الإسلامية التي كانت تقطن المدينة ومع مرور الوقت وامتزاج هذه الجاليات في العصر المملوكي صار للمدينة مأكولات تعرف بها عن غيرها.

Scanned by CamScanner

وقد اعتمد البحث فى هذه الدراسة على المصادر الأصلية واستخلص منها المادة العلمية التى تدخل فى تكوين البحث بعد المقارنة بينها والأخذ من الأوثق منها.

Scanned by CamScanner

التمهيد

لمحة تاريخية عن الحالة السياسية

حين ضعفت الدولة العباسية في العصر العباسي الثاني (٢٣٢ – ٦٥٦هـ / ٨٤٦ – ١٢٥٨م) كان الحجاز بالنسبة للخلافة بعيدًا فقيرًا يحتاج إلى المال والرعاية لإصلاح أحواله و العناية بحجاج البيت الحرام، ولم يجد العباسيون حلاً لمشكلة الحجاز سوى إسناد أموره إلى مصر الثرية بمواردها فأسندوا ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الأخشيد الذي استطاع إقامة حكومة قوية في مصر وخطب للأخشيد على منابر الحرمين مع الخليفة العباسي وصارت الدولة في زمن الأخشيديين تشمل مصر والشام والحجاز [١].

ومنذ تلك الفترة بدأ ارتباط مصر بالحجاز قويًا وهو ارتباط استمر لفترة طويلة فقد أصبحت مصر تعد نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين وصار صاحب مصر مكلفًا بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام والمسجد النبوي ومزارات المسلمين.

وحينما قامت الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر توطدت علاقات الفاطميين بأشراف الحجاز الذين لم تكن موارد البلاد تكفي لسد حاجة أهلها فأمدهم الفاطميون بما يحتاجون إليه من المؤن والغلال والأموال وكسوة الكعبة المشرفة وقد تعاون حكام الحجاز مع الخلفاء الفاطميين وكانوا يعتبرونهم أبناء

(١) المقريزي: المقفى الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) اختيار وتحقيق محمد البعلاوى ص ١٣٤، دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط أ ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م
جمال سرور: سياسة الفاطميين الخارجية – ج ٤ ص ٢٠ – دار الفكر العربي ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

Scanned by CamScanner

عمومة واحدة بالرغم من المحاولات العديدة التي حاولها العباسيون لاستعادة الحجاز إلى نفوذهم مرة أخرى [١].

واستمرت العلاقات بين مصر والحجاز زمن الأيوبيين الذين خلفوا الفاطميين في حكم مصر، وبلغ النفوذ الأيوبي ذروته بالحجاز عن طريق الفرع الأيوبي الذي حكم اليمن وأتيحت له فرصة التدخل في النزاع بين الأخوة من أشراف مكة على منصب الإمارة، وأوجد له نائبًا مقيمًا لحكم مكة وصار هذا النائب هو القوة المسيطرة وله إمرة الحرمين وقيادة الجند وإدارة المال [٢].

---

(1) الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج٢ ص ١٩٤ – دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت).
المقريزي: اتعاظ الحفظ بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ج١ ص ١٠١ – تحقيق جمال الدين الشيال – القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، الخطط ج١ ص٣٥٣ دار صادر – بيروت – (د.ت).
ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة ج٤ ص٣٢، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م، عمر بن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٤٠٦ تحقيق فهيم محمد شلتوت – جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٩٨٣م – عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٨١ – تحقيق فهيم محمد شلتوت جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٩٨٣ ط أ ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
أحمد بن زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ص١٦ مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م – تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية – مخطوط مصور تصويرا شمسيا بمكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ورقة ١٤٠.

(2) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ص ٣١٠، الطبعة الثانية – مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م.
Gerald de Gerald: Rulers of Mecca.,P.58.

Scanned by CamScanner

وحين انشغل الأيوبيون بالمنازعات القائمة فيما بينهم والتي وصلت إلى حد استعانة بعضهم بالصليبيين ضد بعضهم الآخر استطاع نور الدين عمر بن رسول الاستقلال بشئون اليمن عن الأيوبيين ثم السيطره على الحجاز وفرض نفوذه عليه بعد عدة حملات [١].

وحينما قامت الدولة المملوكية في مصر عقب سقوط الأيوبيين اهتم المماليك ببسط نفوذهم على الحجاز نظرًا للصلات الوطيدة بين البلدين والتي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ.

ويرجع اهتمام المماليك بالحجاز إلى زمن الظاهر بيبرس البند قداري الذي سعى إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م حين انتهز فرصة قدوم بعض الأمراء بأحد أفراد الأسرة العباسية الذين نجوا من المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م واحتفى به وجمع العلماء والقضاة والأمراء في القلعة لإثبات نسبه ومبايعته بالخلافة [٢].

= ابن فضل الله الطبري: اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن – مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم ١٤٣٣٣ تاريخ تيمور برقم ٢٤٠٦ لوحة ١٦، الجزيري درر الفرائد المنظمة ج ١ ص ٥٨٨ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م دار اليمامة – الرياض، الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج٧ ص٤٢٥ مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(1) الفاسي: العقد الثمين ج ٤ ص ٣٧٤، ٥٠ ص ٦٥، ٦٠ ص ٣٤٧، الخزرجي: العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٠ مطبعة الهلال بالفجالة ١٣٢٩هـ / ١٩١١م، عبد العزيز بن فهد:= غاية المرام ج ١ ص ٦١٣ بامخرمه: تاريخ ثغر عدن ص ٢٠٨، ٢٠٩ – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ دار الجيل – بيروت.
عمر بن فهد: اتحاف الورى ج ٣ ص ٥٨ – ٦٤.

(2) هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي البند قداري

Scanned by CamScanner

والحقيقة أن بيبرس كان هدفه الاستفادة من سلطة الخليفة الروحية ليكسب حكمه الصفة الشرعية أمام العالم الإسلامي، ولم يكتف بذلك بل إنه سعى عقب نجاحه في إعلان الخلافة العباسية بالقاهرة إلى السيطرة على الحرمين الشريفين وفرض سيادته عليها ليضفي على حكمه الصفة الشرعية والدينية.

ولقد ساعدت الظروف السياسية في الحجاز _ آنذاك _ الظاهر بيبرس في السيطرة على بلاد الحجاز بسبب النزاع الدائم بين الأشراف مما جعل بعضهم يلجأ إلى المماليك طلبًا لمساعدتهم، ففي سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م وقع خلاف بين الشريف أبي نمي [١]، وعمه إدريس بن قتادة [٢]، وقد استطاع أبو

=التركي ولد في حدود سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م بصحراء القبجاق وأخذ من بلاده صغيرا وبيع بدمشق فنشأ بها ثم اشتراه الأمير علاء إيدكين البندقداري الصالحي وبقى في ملكه إلى أن قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب على ايدكين وصادره وأخذ بيبرس ضمن ما أخذه منه ثم أعتقه الملك الصالح وقدمه على طائفة من الجمدارية وظل يترقى ضمن أمراء المماليك حتى استطاع أن يتولى حكم مصر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م بعد مقتل الملك المظفر قطز.

(ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٧ص ٢٠٠٠٩٤، العيني: عقد الجمان حوادث سنتي ٦٥٨، ٦٧٦ هـ، الصفدي: الوافي بالوفيات ج١٠ ص ٣٢٩، الكتبي: فوات الوفيات ج١ ص ١٥٩، المقريزي: السلوك ج١ ق٢ س ٤٣٦، ٦٤١).

(1) أبو نمي هو محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني ولي إمرة مكة نحو خمسين سنة وشاركه عمه إدريس بن قتادة في بعضها وقد توفي سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م (الفاسي: العقد الثمين ج١ ص ٤٥٦-٤٧١).

(2) هو إدريس بن قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسنى، ولي إمرة مكة نحو سبع عشرة سنة شريكا لابن أخيه أبي نمى وجرت بينهما عدة خلافات سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م كان من نتيجتها مقتل إدريس سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م، (عبد العزيز مهند: غاية المرام ج١ ص ٦٤٠ – ٦٤٢).

Scanned by CamScanner

نمي هزيمة عمه إدريس وأخرجه من مكة وانفرد بالإمارة وخطب لبيبرس البند قداري صاحب مصر [1] حتى يضمن مساندته له، وكان هذا إيذانًا بتدخل بيبرس في شئون الحجاز حيث رأى أن التجاء الشريف أبي نمي إليه فرصة لتوطيد سيطرته على مكة ولكي يضمن ولاء أشراف مكة جميعًا له سعى إلى عقد الصلح بين إدريس بن قتادة وأبي نمي اللذان اتفقا على طاعة بيبرس [2] الذي ذهب بنفسه إلى الحجاز في العام التالي لتأدية فريضة الحج والاطمئنان على استقرار الأمور هناك [3] أما أشراف المدينة فقد تدخل الظاهر بيبرس في شئون أمرائها الحسينيين من بنى مهنا حينما كتب تقليدًا للشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة بالمشاركة في نصف إمارة المدينة وأوقافها مع جماز بن شيحة [4] ثم تنازل مالك طواعية عن الإمارة لعمه جماز الذي استمر في الإمارة حتى سنة ٧٠٠هـ /١٣٠٤م [5]، تولى منصور بن جماز الإمارة ثم دخل في صراع على السلطة بينه وبين إخوته وبخاصة أخوه مقبل بن جماز الذي ذهب إلى السلطان المملوكي سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م يشكو أخيه ويطلب مشاركته في إدارة أعمال

---

(1) الفاسي: العقد الثمين ج ١ ص ٤٥٦.

(2) ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص٢٩٣، المقريزي: الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك تحقيق جمال الدين الشيال ص ٨٧-٨٨ لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٥م.

(3) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ق٢ ص ٥٨٠، ابن تغزي بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٤٦.

(4) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ج٣٠ ص ١٤٦ – ١٤٧ تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.

(5) الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر ج٤ ص١٠ تحقيق أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الفاسي: العقد الثمين ج٣ ص ٤٣٧، ابن تغزي بردي: النجوم الزاهرة ج٨ ص٢١٤.

Scanned by CamScanner

الإمارة فاستقبله السلطان وأكرمه وأصدر له أمرًا سلطانيًا بتوليته نصف الإمارة مع أخيه الأمير منصور بن جماز [1].

ويبدو أن سلاطين المماليك كانوا يصدرون القرارات الخاصة بتعيين هؤلاء الأشراف دون معرفة بالأمور السائدة في المدينة فحينما يذهب أحد الأشراف إلى القاهرة ويشكو من أخيه أو ابن عمه ويطلب من السلطان المملوكي أن يعينه في الإمارة أو يشركه معه كان السلطان يستجيب على الفور دون أن يعرف الأوضاع السائدة في المدينة، وهل أهل المدينة سيوافقون على هذا الأمير أم أنهم سيعترضون عليه وتحدث فتنة وحروب بينهم ومما لاشك فيه أن القرار الذي أصدره السلطان المملوكي لمقبل بن جماز بمشاركة أخيه منصور بن جماز قد لقي معارضة من منصور الذي رفض تنفيذ أوامر السلطان المملوكي الذي أمر بإلقاء القبض عليه وإحضاره إلى مصر مع أمير الحاج المصري [2] وما لبث أن رضى السلطان عنه فأعيد إلى ولايته سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦م واستقرت له الأمور [3] عدة سنوات حتى تعرض للقتل على يد ابن أخيه حديثة بن قاسم بن جماز في الرابع والعشرين من رمضان سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م [4]، وتولي الإمارة من بعده ابنه كبيش بن منصور وشهد عهده صراعًا على الإمارة مع عمه ودى بن جماز سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م خرج على إثره كبيش من

---

(1) المقريزي: السلوك ج٢ ق١ ص٨٤.

Esin Emel: Mecca the Blessed Madinh the Radiant, P68.

(2) السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ج٣ ص٧٠٤، تحقيق أسعد طرابزوني الحسيني – القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(3) Stanly Lane poole: A History of Egypt in the Middle Ages pp150-151

(4) المقريزي: السلوك ج٢ ق١ص٢٦٩، ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٢٦٢، ٢٦٣.

Scanned by CamScanner

المدينة [1] غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الإمارة بأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بعد إلقاء القبض على الأمير ودي بن جماز [2] واستمر كبيش أميراً على المدينة حتى مقتله في رجب سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٧م [3].

واستمر المماليك يتدخلون في شئون المدينة السياسية حيث أصدر السلطان المملوكي محمد بن قلاوون أمرًا بتقليد الشريف طفيل بن منصور إمارة المدينة سنة ٧٢٨هـ بعد مقتل أخيه كبيش بن منصور [4].

ولعل السلطان المملوكي قد غضب على الشريف طفيل فأصدر أمرًا بعزله سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وولي إمارة المدينة للشريف ودي بن جماز الذي توفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م [5] مما جعل الشريف طفيل يدخل إلى المدينة ويعيد فرض نفوذه عليها فاضطر السلطان المملوكي إلى إصدار تقليد له بإمارة المدينة المنورة لكنه لم يستمر في الإمارة طويلاً حتى صدر قرار بعزله سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م مما جعله يثور ويهاجم المدينة ويستولي على ماكان بها من بضائع وأمتعه لكثير من الحجاج فأمر السلطان المملوكي الحسن بن محمد بن قلاوون بإلقاء القبض عليه حيث نقل إلى القاهرة وسجن بها حتى وفاته [6] ثم تولى إمرة المدينة الأمير سعد بن ثابت بن جماز، وكان هذا الأمير يحكم بالعدل

---

(1) ابن الوردي: تاريخ ابن الورى ج٢ ص٤٠١ ط٢، المطبعة الحيدية – النجف ١٣٨٩هـ /١٩٦٩م.

(2) المقريزي: السلوك ج٢ ق١ص٢٨٨.

(3) المصدر السابق ص٣٠٤.

(4) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٥ ص١٨٠.

(5) المصدر السابق.

(6) السخاوي: التحفة اللطيفة ج٢ ص٢٥٩.

Scanned by CamScanner

بين أهل المدينة وكانت سيرته حينة بينهم وقد نجح في تغيير النظام القضائي بالمدينة المنورة حيث أمر بمنع آل سنان قضاة المدينة الإمامية من التعرض للأحكام الشرعية وعقود الأنكحة وغيرها ورد الأمر كله إلى أهل السنة تقربًا لسلطنة المماليك بإظهار السنة وإخماد البدع ومنع الشيعة أن يدخلوا معه إلى الحجرة النبوية الشريفة إذا أراد الزيارة وأقام مقامهم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله المؤذن السني [١].

ونادى في المدينة وأسواقها جهارًا نهارًا ألا يحكم في المدينة إلا القاضي الشافعي وهدد من يعارض ذلك بالعقاب [٢]، وعاشت المدينة في زمن الأمير سعد بن ثابت حياة هادئة نعمت فيها بالأمن والسكينة حيث سار في الناس سيرة حسنة حتى أحبوه وقام ببناء سور حول المدينة للدفاع عنها غير أنه لم يستطع استكماله نظرًا لهجوم الأعراب على المدينة مما دفع الأمير سعد إلى الخروج لملاقاتهم وتمكن من صدهم واستطاع إخراجهم من المدينة لكنه أصيب بسهم ومات على أثره سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م [٣].

وواصل المماليك تدخلهم في شئون المدينة السياسية حيث صدر مرسوم سلطاني بتوليه إمارة المدينة للأمير جماز بن هبه بن جماز بن منصور سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م لكنه دخل في صراع مع أبناء عمومته مما دفع السلطان المملوكي فرج بن برقوق إلى اتباع سياسة جديدة ضد أشراف المدينة حيث قرر وضع السلطة في بلاد الحجاز في يد أمير واحد من الأشراف العلويين فأصدر مرسومًا في سنة

---

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٢٣٣.

(2) المصدر السابق.

(3) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج ٤ ص ١٩٦.

- Hogarth (D.G) A History of Arabia, pp82

Scanned by CamScanner

٨١١هـ/١٤٠٨م يقضي بضم إمارة المدينة وأعمالها إلى الشريف حسن بن عجلان أمير مكة الذي صار أميرًا على الحجاز من قبل السلطنة المملوكية والذي بادر على الفور بممارسة سلطاته وقام بتعيين عجلان بن نعير أميرًا من قبله على المدينة [١] مما أدى إلى غضب الأمير جماز بن هبه الذي قام بحشد أنصاره وأتباعه وأعلن ثورته على الشريف الحسن ونائبه ولم يكتف بذلك ؛ بل قام بسلب محتويات خزائن المسجد النبوي [٢].

ولما علم الشريف حسن بخبر التمرد الذي أعلنه الأمير جماز بن هبه بادر على الفور بإعداد قواته وأنصاره وذهب إلى المدينة المنورة لملاقاة الشريف جماز الذي لم يستطع الصمود أمام قوات الأمير حسن وفر هاربًا من أمامه وغادر المدينة المنورة لتستقر الأمور فيها بين يدي الشريف عجلان بن يغر الذي تمكن من السيطرة على الأمور بها [٣] واستمر أميرًا على المدينة المنورة إلى سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م حيث تولى الإمارة بعده عزيز بن هيازع بن ثقبة بن جماز الحسيني الذي استمرت إمارته على المدينة مدة ثماني سنوات وعزل عنها سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م [٤] ليقوم السلطان المملوكي الأشرف برسباي بتعيين الأمير خشرم بن دونمان بن هبه سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م [٥].

---

(1) الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٠٥، ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة ج١٥ ص١٥٣.

(2) ابن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٣ ص٤٦٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت – الطبعة الأولى – جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

(3) الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٠٦.

(4) المصدر السابق ج٤ ص٨٦.

(5) ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة ج١٤ ص٢٤٢.
المقريزي: السلوك ج٤ ق ٢ ص ٧٥٦.

Scanned by CamScanner

ومما لاشك فيه أن سلطات أمير المدينة المنورة قد ضعفت بعد أن فوض السلطان المملوكي قايتباي في سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م لأمير مكة توليه كافة المناصب في بلاد الحجاز [١]، واستمرت الأمور على ذلك حتى أواخر العصر المملوكي حيث صدر مرسوم من السلطان المملوكي قانصوه الغوري يكلف فيه أمير الحجاز بالنظر في تعيين أمير جديد للمدينة بالتعاون مع قضاة المدينة المنورة وشيخ الحرم النبوي مما دعا الشريف بركات بن محمد إلى إرسال ابن أبي نمي مع الشريف عرار وقاضي القضاة الشافعي الصلاحي بن ظهيرة لاختيار أمير للمدينة واتفق الجميع على تولية الشريف ثابت بن ضيغم [٢] وخلاصة القول إن سلاطين المماليك استطاعوا فرض نفوذهم على أشراف المدينة وكانوا يولون إمرتها للشريف الذي يدين لهم بالولاء فإذا ثبت مخالفتهم لأوامرهم قرروا عزله وتعيين آخر بدلاً منه يدين لهم بالولاء.

---

(1) السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج٦ ص٢٠١، دار مكتبة الحياة – بيروت.

(2) ابن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج٣ ص٢٨١، الطبعة الأولى – جامعة أم القرى – مكة المكرمة – تحقيق فهيم محمد شلتوت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

Scanned by CamScanner

طبقات المجتمع المدني

لقد كان المجتمع المدني زمن المماليك يتكون من طبقة الأشراف فأرباب الوظائف الدينية ثم المجاورون فطبقة العبيد ثم طبقة الأغوات وطبقة العامة، وسوف نعرض لهذه الطبقات كما يلي:

أولاً: طبقة الأشراف:

وهم الذين ينتسبون إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – من آل الحسن والحسين – رضي الله عنهما – ولم يكن هذا اللقب معروفًا من قبل في الحجاز [1] إلى أن أقام الشريف جعفر بن محمد الحسيني الدعوة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة ٣٥٨هـ /١٩٦٩م قبل حضوره إلى مصر فأرسل جوهر الصقلي يخبره بإقامة الدعوة له بمكة فأنفذ المعز إليه كتابًا بتقليد جعفر إمارة مكة بعد أن وصلت إليه البشارة بإقامة الدعوة له وانقطاع دعوة العباسيين [2].

أما المدينة المنورة فقد استطاع بنو الحسين السيطرة على الأمور بها إلى أن قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم بن محمد بن عبد الله بن طاهر الحسيني، وكان سبب قدومه من مصر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد خطب من مسلم ابنته لابنه العزيز فرفض مسلم مما جعل المعز يسخط عليه ويسجنه ويصادر أمواله ويعتقله حتى مات وفر ابنه طاهر إلى المدينة سنة

---

(1) الفاسي: شفاء العزام ج٢ ص١٩٤، المقريزي: اتعاظ الجنفا ج١ ص١٠١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٤ ص٣٢، ابن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص٤٠٦.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٤ ص٣٢، الفاسي: شفاء العزام ج٢ ص ١٩٤، عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ج١ ص ٤٨١.

Scanned by CamScanner

٣٦٠هـ / ٩٧٠م [١] ويبدو أن الفاطميين قد رضوا عنه حتى يستمر نفوذهم على بلاد الحجاز حيث يذكر ابن فهد أن الدعوة للفاطميين استمرت منذ تلك الفترة في الحرمين الشريفين وبطلت الدعوة للعباسيين [٢].

وأطلق الفاطميون على أمراء مكة والمدينة لقب الأشراف واستمر هذا اللقب يطلق عليهم وعلى أفراد عائلاتهم الذين كانوا يعتمدون عليهم في إدارة شئون الإمارة[٣].

ثانيًا: أصحاب الوظائف الدينية:

كان بالمدينة المنورة في العصر المملوكي عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية ومن أهم هذه الوظائف القضاة والخطباء والقراء والمؤذنون والأئمة.

وكان منصب القضاء من أجل المناصب [٤] إذ تعد وظيفة القاضي الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة والمدينة، ولا بد أن يكون قاضي البيت الحرام والمسجد النبوي من كبار العلماء والفقهاء وقد امتاز القضاة بميزات معينة في هذه الفترة فقد تمتعوا بنفوذ قوي داخل الدولة واحترمهم أمراء البلاد وسلاطين

---

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٥٥ – ٥٦، ابن عنبه: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ص ٣٣٥، ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ١٣٩ – ١٤٢.

(2) ابن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٤٠٦.

(3) الفاسي: شفاء العزام ج٢ ص١٩٤، المقريزي: اتعاظ الحنفا ج١ ص١٠١، أحمد بن زيني دحلان: خلاصة الكلام ص ١٦.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٢ ص٢٤١ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٢٢هـ/١٩١٤م.

Scanned by CamScanner

المماليك وعاشوا في سعة وبسطة في الحياة نتيجة ما أغدقته الدولة عليهم من رواتب وإنعامات.

ويذكر السمهودي أن القضاء والخطابة بالمدينة المنورة كان لسنان الحسيني الشيعي الرافضي وأهل بيته توارثوا ذلك منذ زمن الفاطميين والأيوبيين، وكان لأهل السنة إمام يصلي الصلوات الخمس فحسب[١].

ويذكر ابن بطوطة أن قاضي الشيعة بالمدينة أثناء رحلته هو شرف الدين قاسم بن سنان [٢] مما يؤكد كلام السمهودي الذي يبين أن الشيعة استمر تغلبهم على أهل السنة بالمدينة إلى ما بعد السبعمائة [٣] ويصف ما يفعله الخطيب في المدينة المنورة فيقول: " فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل في السرعة وابتدر الجمع مردة من الخدام يخترقون الصفوف ويتخطفون الرقاب كدية على الأعاجم والحاضرين لهذا الخطيب القليل التوفيق فمنهم من يطرح له الثوب النفيس ومنهم من يتجرد من برده فيلقي به ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينارين إلى غير ذلك، ومن النساء من تطرح خلخالها أو تخرج خاتمها فتلقيه إلى ما يطول وصفه، والخطيب أثناء هذه الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس بلحظات يكرها الطمع والحرص ويعيدها الرغبة والاستزاده إلى أن كاد الوقت ينقضى والصلاة تفوت، وقد ضج من له

---

(1) السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٢ من كتاب رسائل في تاريخ المدينة – إشراف حمد الجاسر دار اليمامة – الرياض – بدون تاريخ.

(2) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٤٥ تحقيق المنتصر الكتاني الطبعة الرابعة – مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(3) السمهودي: الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٢.

Scanned by CamScanner

دين وإخلاص من الناس، وأعلن بالصياح وهو قاعد وقد أراق عن وجهه ماء الحياء حتى اجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم فلما أرضاه قام وأكمل خطبته وصلى بالناس وانصرف " [1].

وقد نزع القضاء والخطابة من يد آل سنان سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م في زمن السلطان المملوكي المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠م) الذي عين الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد الخضري الشافعي [2] الذي استمر في عمله قرابة أربعين سنة وحتى وفاته ثم تولى من بعده البهاء بن سلامة المصري الذي لم يمكث في منصبه سوى عامين ثم خلفه الأميوطي الشافعي الذي عرف بشدته على الأشراف وبسطوته على الشيعة الإمامية الذين كانوا يخشونه [3].

أما المؤذنون فنظرًا لأن وظيفة الأذان تعد من الوظائف الأساسية لكون الأذان إشعارًا بدخول الصلاة ونظرًا للأهمية الدينية للمسجد النبوي فقد كان اختيارهم يتم بكل دقة ولابد أن يكونوا من أهل الصلاح والتقوى والعارفين بكتاب الله ومواقيت الصلاة ومن أشهر المؤذنين في العصر المملوكي أحمد بن خلف بن عيسي الأنصاري الخزرجي العبادي الساعدى المطري وإبراهيم بن محمد بن مرتضى الكناني العسقلاني المصري الذي صار رئيسًا للمؤذنين حتى

---

(1) المصدر السابق ص ١٤٣ - ١٤٤.

(2) المقريزي: السلوك ج١ ص٦٣٣، ٨٥٧.
السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٥٤.

(3) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٤ ص٢٧٦.
Nicholson, prof. Reynold: A literary History of the Arabs,p99

Scanned by CamScanner

وفاته واستمرت وظيفة الأذان في أسرتي المطري والمرتضى الكناني يتولاها الأبناء عن الأباء [1].

ثالثًا: المجاورون:

هم المسلمون الذين قدموا من مختلف الأقطار الإسلامية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة للمجاورة على مر السنين قبل وخلال العصر المملوكي احتماء بحرم الله وابتغاء لفضل الله ورضوانه وقصد التجارة للدنيا والآخرة وما لبثوا أن استقروا بين السكان واندمجوا في المجتمع وصاروا يشكلون جزءًا منه.

وكان للمجاورين دور في كل ما يدور من أحداث داخل المدينة المنورة فحينما قام الأمير منصور بن جماز سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م بفرض الضرائب على خدام الحجرة النبوية وطلب من كل واحد منهم ألف درهم رفضوا الاستجابة له وأيدهم المجاورون في ذلك [2]، ولما حاول بعض أمراء الأشراف نهب المدينة واقتسام أموال أهلها تصدي لهم المجاورون ومنعوهم من ذلك [3].

ونظرًا لأهمية الدور الذي كان المجاورون يقومون به فقد كان قضاة الشيعة الإمامية يتقربون إليهم كما يذكر ابن حجر العسقلاني الذي يقول عن القاضي نجم الدين مهنا بن سنان (ت ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م) أنه كان "يتحبب إلى

---

(1) عبد الرحمن مديرس المديرس: المدينة المنوره في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م).
دراسة تاريخية – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
ص٢١٨-٢١٩.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٢٠١.

(3) السخاوي: التحفة اللطيفة، ج٢ ص١٢٦.

Scanned by CamScanner

المجاورين ويمدحهم بالفضائل الحسنة ويستقضيهم الحوائج ويحضر مواعيدهم ومجالس الحديث"[1].

ولقد ساعد على حركة المجاورة ما قام به سلاطين الدولة المملوكية من إنشاء بعض المدارس والأربطة وإقامة الدروس في الحرم النبوي الشريف ووقف الأوقاف الضخمة على الكتب والمدارس والأربطة والزوايا وما أنفقوه على المجاورين وما قاموا به من تنظيم بحيث لم يعد المجاور يخشى ألا يجد مأوى أو طعامًا إذا ضاقت به سبل العيش بجوار المسجد النبوي الشريف.

رابعًا: طبقة العبيد:

كان للعبيد دور كبير في الحجاز ووصل بعضهم إلى مرتبة الإمارة إذ لما توفي الأمير شكر بن أبي الفتوح الحسني أمير مكة سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ولم يعقب تولي الإمارة خلفًا له عبد من قواده يسمى طراد بن أحمد [٢] واستمر فترة من الزمن حتى خلفه بنو أبي الطيب الحسينيين وتولوا الأمر بدلاً منه [٣].

وكان الإماء والجواري يجلبن من أسواق النخاسة بجميع البلاد ومنهن الحبشيات والروميات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر [٤] وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم حتى

---

(1) ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة ج٣ ص٢٢٤.

(2) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٧.

الفاسي: العقد الثمين ج٥ ص ١٤

(3) أحمد بن زيني دحلان: خلاصة الكلام من ١٧-١٨.

(4) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج٢ ص٤٣٢-٤٣٣ - مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٨٢م.

Scanned by CamScanner

نشأ فيهم على بن الحسن بن على – رضي الله عنه – وفاق أهل المدينة فقهًا وعلمًا وورعًا فرغب أهل المدينة في اتخاذ الجواري [١].

وفي زمن الأيوبيين أخذ أمير مكة قتادة الحسني جارية حبشية من المدينة وجعلها مقربة منه وقد اشتركت مع ابنه الحسن بن قتادة في قتل ابيه كي يتولى الإمارة [٢]، كما كان بعض أفراد الأشراف بمكة من أبناء الإماء كالأمير أبي سعد على بن قتادة الذي كانت أمة حبشية [٣].

والحقيقة أن طبقة العبيد في المدينة المنورة لم يكن لها دور في الأحداث كما كان الحال في مكة المكرمة حيث كانوا كثرة، وكانوا من اتباع الأمير وأعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته وحمايته وتنفيذ أوامره إذ يذكر الفاسي أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر كان له نحو ألف عبد من جنده[٤].

خامسًا: طبقة الأغوات:

الأغوات هم الذين يقومون بخدمة الحرمين الشريفين، وكان معظمهم من الحبش والأروام والتكارنة والهنود [٥] وقد وصفهم ابن جبير في رحلته إلى بلاد الحجاز بقوله: " وسدنتة فتيان أحابليس، وصقالب ظراف الهيئات نظاف الملابس والشارات " [٦].

---

(1) المرجع السابق.

(2) عبد العزيز بن فهد: غاية المرام ج١ ص٥٧١، ٥٨٧.

(3) المصدر السابق ص ٢٢٩.

(4) الفاسي: شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٩.

(5) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٥٩.

(6) ابن جبير: الرحلة ص ١٥٣ ط بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

Scanned by CamScanner

وقد وقف صلاح الدين الأيوبي عدة قرى بمصر على هؤلاء الأغوات الذين كان عددهم في زمنه يصل إلى أربعة وعشرين فردًا ومن هذه القرى قرية نقادة من عمل قوص [١] وقرية قباله بالصعيد [٢] وثلث قرية سندبيس بالقليوبية وضمن ذلك كتابًا للوقف بتاريخ ١٨ ربيع آخر سنة ٥٦٩هـ [٣].

ومن وظائف هؤلاء الأغوات حفظ المسجد النبوي نهارًا وقفل أبوابه وحراسته ليلاً ولا يبيت في المسجد النبوي إلا شيخهم ليطفئ القناديل ويفتح الباب للمؤذن، ومن أعمالهم الأخرى تنزيل القناديل كي تملأ بالوقود وتنظيفها من الغبار وإسراج ما يوقد منها وقت السمر وتنظيف المسجد النبوي والروضة الشريفة والحجرة النبوية الشريفة في أيام الجمع وفرش بساط أمير المدينة وإيقاد البخور بالمسجد [٤].

وكان لهؤلاء الأغوات نظام يقوم على الدقة والإتقان فهم يأتون إلى الحرم النبوي الشريف في موعد محدد وينصرفون بعد أن يكون كل واحد منهم قد أدى ما يوكل إليه من عمل فهم أول الناس دخولاً إلى المسجد كما أنهم آخر الناس خروجًا منه [٥].

وكانت هذه الطبقة تستمد نفوذها واحترامها مما تقوم به من خدمة للمسجد النبوي الشريف لما له من مكانه خاصة في نفوس المسلمين هذا من ناحية ومن

---

(1) المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص ٥٧.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٤٣.

(3) المقريزي: السلوك ج١ ق١ ص٥٧.

(4) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٤٩-٥٠.

(5) عاصم حمدان على حمدان: حارة الأغوات صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن ١٠٤هـ. دار القبلة للثقافة الإسلامية ط أ ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ص٢٢.

Scanned by CamScanner

ناحية أخرى من دعم سلاطين المماليك وتقديرهم لهذه الفئة فيذكر ابن إياس أن شيخ الأغوات كان إذا قدم على سلاطين المماليك يقومون له ويجلسونه إلى جانبهم ويتبركون به لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة [١]، بل أن شيخ الأغوات جمال الدين محسن الصالحي حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م أكرمه السلطان وضرب له خيمة على باب الدهليز وأعطاه ما يزيد على مائتي ألف درهم نقرة عند عودته إلى المدينة [٢] وحينما حدث صراع بين أمير المدينة مقبل بن جماز وأخيه منصور وأراد أمير المدينة الاستعانة بالأغوات سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م وطلب من كل واحد منهم ألف درهم وكان عددهم أربعين فردًا فأبوا مساعدته وإعطائه الأموال فاشتد عليهم وأنزل بعضًا منهم في أحد الآبار مما أغضب السلطان المملوكي الذي أصدر أمرًا لأمير الحاج المصري بإلقاء القبض على أمير المدينة وإحضاره إلى مصر لمعاقبته[٣].

سادسًا: طبقة العامة:

وهذه الطبقة تمثل الأغلبية العظمي من الناس الذين سكنوا المدينة وكان منهم عدد قليل من ذرية الأنصار سكان المدينة الأصليين بالإضافة إلى فئات أخرى من الشاميين والأتراك والهنود والمصريين والمغاربة الذين قدموا إلى المدينة خلال عصور إسلامية مختلفة [٤].

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٤٣.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٣٥٢-٣٥٣.

(3) السخاوي: التحفة اللطيفة ١٨٧/٣.

(4) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٣٩.

Scanned by CamScanner

وكانت هناك فئة من العامة تسمى (النخاولة) سكنت الزقاق المعروف باسمهم في المدينة وكانوا من الشيعة الإمامية الذين اشتغلوا بالفلاحة داخل المدينة بالإضافة إلى الجزارة وبيع الخضار[1]، ومن طبقة العامة في المدينة كان التجار الذين يعملون بالتجارة بين الشرق والغرب والصناع الذين كانوا يشكلون فئة ضئيلة من السكان أما معظم السكان من العامة فكانوا يعملون بالرعي لأنها من الحرف المفضلة لديهم نظرًا للبيئة التي كانوا يعيشون فيها ولأنها توفر للأعرابي الحرية التي لا يتمتع بها الفلاح[2].

والحقيقة أن طبقة العامة في الحجاز كانت كثيرًا ما تتعرض للجوع والفقر وعدم الاهتمام من الأشراف حكام البلاد مما جعل صغارهم يعملون مثل الكبار لسد الحاجة والعوز، وقد وصف ابن بطوطة من هذه الطبقة الأيتام الصغار الذين كانوا يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى ويذكر أنهم يسمون القفة مكتلاً فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق فيشتري الحبوب واللحم والخضر ويعطي ذلك للصبي فيجعل الحبوب في أحدى قفتيه واللحم والخضر في الأخرى ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته محفوظة فلا يذكر أن أحدًا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجره معلومة من المال [3].

---

(1) عبد الحق نقشبندي: مأساة المدينة المنورة، مقال في مجلة المنهل ج٥ مجلة ٢٣ ص٢٧٩، عدد جمادى الأولى ١٣٨٢هـ / أكتوبر ١٩٦٢م.

(2) د. جميل حرب: بلاد الحجاز واليمن ص ٢٣٠.

(3) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٦٨-١٦٩.

Scanned by CamScanner

ويبدو أن أمراء المماليك كانوا يشعرون بمدى حاجة العامة فكانوا يأتون إليهم في مواسم الحج بألوان من الطعام ويوزعونها عليهم ففي أثناء حج الأمير بكتمر الجوكندار المملوكي المصري حمل معه ألوانًا من الطعام ووزعها على الفقراء، ويصف ابن فهد ذلك بقوله: " وجهز في حجه سبعة مراكب في بحر القلزم وشحنها بالغلال والدقيق وأنواع الإدام من العسل والسكر والزيت والحلوى وجعلها أكوامًا وقام بتوزيعها على فقراء العامة [1].

(1) ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص١٣٢.

Scanned by CamScanner

العادات الاجتماعية والدينية

سكن المدينة المنورة على مر العصور أعداد كبيرة من البشر من جنسيات شتى كالترك والمغاربة والمصريين والشاميين وغيرهم مما كان له الأثر الواضح على عادات وتقاليد تلك الشعوب والسكان الأصليين بالمدينة، **والتي تنقسم إلى قسمين نشير إليهما فيما يلي:**

أولاً: الاحتفالات الدينية:

إذا أهل هلال شهر رمضان أقبل أهل المدينة المنورة على الاحتفال بقدوم هذا الشهر المبارك فيصبح المسجد النبوي مكتظًا بالمسلمين الذين يجلسون لتلقي الدروس الدينية وتلاوة القرآن الكريم إلى غروب الشمس حيث تمد موائد الإفطار داخل الحرم النبوى كي يتناول رواده إفطارًا خفيفًا بعد آذان المغرب لا فرق بين غنيهم وفقيرهم [1] ثم يؤدون صلاة المغرب وينتقلون بعد ذلك إلى دورهم لتناول الإفطار الكامل المكون من اللحوم والخضار والحلوى واللبن، ويأخذون من يجدونه في الطريق ليفطر معهم، وبعد انتهائهم من طعام الإفطار يذهبون إلى المسجد لتأدية صلاة العشاء ثم صلاة التراويح [2]، وبعد الصلاة تعقد مجالس السمر ويجتمع فيها كبار رجال المدينة وأعيانها للحديث عن أمورهم وأخبار حكامهم، وفي نهاية الشهر يقوم أغنياء المدينة بتوزيع الثياب البيضاء على الفقراء [3].

---

(1) عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ص ٨٥، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ دار مكة للطباعة والنشر.

(2) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٤٣.

(3) عبد الحق نقشبندي: مأساة المدينة المنورة ص ٢٨٢.

Scanned by CamScanner

وفي ليلة عيد الفطر يوقدون المشاعل ويسرجون المصابيح ويوقدون الشموع ويشترون الحلوى التي تنتشر بكميات كبيرة في الشوارع الرئيسة وكذا الروائح وغيرها من متطلبات العيد [١].

وفي فجر يوم العيد يخرج رب الأسرة لصلاة الفجر ثم صلاة العيد بالمسجد النبوي ومعه أولاده وهم يرتدون ملابس العيد الجديدة [٢] وتقام صلاة العيد بالمسجد النبوي ويصلي أئمة الشافعية والأحناف لقلة عدد المالكية بالمدينة وكذلك أئمة الإمامية الذين استمروا يؤدون صلاتهم بالمسجد النبوي إلى أن أصدر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون أمرًا بعدم السماح لهم بالصلاة في المسجد النبوي سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٣م [٣].

وعقب تأدية صلاة العيد يقوم أهل المدينة بزيارة بعضهم البعض ويقدمون للزائرين الحلوى ويتطيبون بماء الورد وينثرون البخور من العود الهندي [٤] أما عيد الأضحى فإن أهل المدينة المنورة يطلقون عليه مسمى (عيد اللحم) فيقومون بشراء الذبائح قبل العيد ويستعدون له بالاتفاق مع الجزارين الذين يأتون إلى المنازل عقب تأدية الصلاة ويقومون بذبح الخراف ويأخذون أجرتهم وينتقلون من مكان إلى آخر حيث يقوم الأهل بتقطيع الذبيحة إلى قطع صغيرة بعد أن يخرجوا أجزاء منها للصدقة وأجزاء أخرى يتهادون بها

---

(1) ياسين الحياري: صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة ص١٧١، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ /١٩٩٣م.

(2) المرجع السابق ،

(3) السخاوي: التحفة اللطيفة ج٢ ص١٥٠.

(4) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٤٤.

Scanned by CamScanner

ويتناولون اللحم مع الأرز في طعام الغذاء وفي عصر يوم العيد يخرجون للتنزه مع أطفالهم في البساتين القريبة من المدينة [١].

ثانيًا: العادات الاجتماعية:

كان لأهل المدينة المنورة عادات وتقاليد خاصة بهم في حالات الزواج والولادة والوفاة ففي الزواج إذا رغب فتى الاقتران بفتاة يرسل إحدى قريباته لزيارة أهل العروس والتعرف على شخصيتها وتبدى ملاحظاتها على أخلاقها وصفاتها الجمالية فإذا كانت الصفات التي يريدها الفتى موجودة في الفتاة التي يريدها[٢] اتفق أهله مع أهلها على مراسم الزواج حيث يحدد موعد لقراءة الفاتحة في منزل والد الفتاة وفي الموعد المحدد يذهب والد العريس وإخوانه وأقاربه إلى منزل الفتاة حيث يكون والد الفتاة أو ولي أمرها وأخوانها وأقاربها في انتظارهم وبعد تناول القهوة تقدم الفتي لخطبة الفتاة من والدها أمام الجميع[٣] ويقوم بإلقاء كلمة موجزة يشيد فيها بأسرة الفتاة ويرد عليه أحد أفراد الأسرة فيشيد هو الآخر بالفتي وأسرته ثم يقرأ الجميع الفاتحة ويحددون موعدًا لعقد القران في المسجد النبوي عقب صلاة المغرب والعشاء، وعقب عقد القران توزع الحلوى والمشروبات في الحفل ويحضر قارئ للقرآن ومنشد يلقى أبياتًا شعرية ويتم الاتفاق على موعد الزفاف الذي يكون بعد سنة حتى يتمكن والد الفتاة من إعداد الأثاث لمنزل الزوجية [٤].

---

(1) ياسين الحياري: صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة ص ١٧٢.

(2) هيا البابطين: الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة زمن العثمانيين الرياض ٢٠٠٧م ص٢٦.

(3) ياسين الحياري: صورة من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة ص١٦٢.

(4) حمد محمد القحطاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز ص١٥.

Scanned by CamScanner

وكان من عادة بعض الأسر في المدينة ألا تخرج الزوجة من بيت زوجها إلا بعد أن تلد طفلها الأول حيث يتم تسمية المولود بعد أسبوع من ولادته [١] وإذا أتم الطفل أربعين يومًا من ولادته يقومون بتغسيله وينظفونه ويلبسونه ملابس بيضاء زاهية ثم يعطرونه ويأخذونه وهم في أحسن زينة لهم إلى الحجرة النبوية الشريفة ويعطونه إلى أحد خدام الحجرة النبوية الشريفة من الأغوات الذين يضعونه فيها ويغطونه بستارتها ثم يدعون له بالخير ويخرجون فيسلمون الطفل إلى أمه فتأخذه فرحة جذلة [٢].

ومن عادة أهل المدينة عند الوفاة أن الميت بعد أن يواري التراب يقف أهل الميت لتقبل العزاء ثم يعودون إلى المنزل فيقيم أهل المتوفى عزاءهم ثلاثة أيام بعد صلاة المغرب يستقبلون المعزين فيها [٣] ويزورون المقابر رجالاً ونساء في ليلتي الاثنين والخميس ويأخذون معهم أعواد الريحان يضعونها على القبور ويصطحبون معهم بعض القراء الذين يقرأون ما تيسر من القرآن الكريم ويهدونه إلى روح المتوفى [٤].

ولأهل المدينة أوقاتهم التي يروحون فيها عن أنفسهم فيخرجون للتنزه في يومي الثلاثاء والجمعة عقب تأدية صلاة العصر فيذهبون فرادى وجماعات ويعودون في المساء وبعضهم يخرج من أول النهار يحمل زاده معه في هذه النزهة التي تسمى مقيالاً [٥].

---

(1) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٤٥.

(2) المرجع السابق.

(3) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج١ ص٢٢٦.

(4) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج١ ص٤٤٥.

(5) إبراهيم على العياش: المدينة بين الماضي والحاضر ص ٢٤١، دمشق ١٩٧٣م.

Scanned by CamScanner

ومن عاداتهم في الهدايا أن كل فرد منهم يقدم كل سنة في ليلة السابع والعشرين من شهر ذي القعدة كميات من الحنطة كهدية إلى الحجرة النبوية الشريفة، وبعد أن يغسل الحنطة وينظفها جيدًا يضعها في كيس جديد من القماش الأبيض ويحملها إلى المسجد النبوي الشريف حيث يضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة فيأخذها خدم الحجرة النبوية الشريفة ويهدون منها إلى كبار المسلمين تبركًا(١).

ومن العادات الاجتماعية التي انتشرت في المدينة المنورة زمن المماليك خروج بعض أهلها في أيام الخميس من شهر رجب وبخاصة عند نزول الأمطار والمبيت عند مقام حمزة بن عبد المطلب – رضي الله عنه – بالقرب من جبل أحد ويحملون معهم أصنافًا كثيرة من الأطعمة والحلوى التي يأكلون منها ويعطون الفقراء الذين يتبعونهم (٢).

ومن البدع التي انتشرت في المدينة المنورة بدعة الجزعة التي كانت تقع في المحراب القبلي المواجه للمصلى في المسجد النبوي الشريف، وكان يجتمع إليها الرجال والنساء الذين يدعون أنها خرزة فاطمة بنت رسول- الله صلي الله عليه وسلم- وكانت مرتفعة لا تنالها الأيدى فتقف المرأة لصاحبتها حتى تصعد على ظهرها وكتفيها لتصل إليها وقد تقع المرأة وتتكشف عورتها فلما أتى إلى المدينة الصاحب زين الدين أحمد بن محمد بن على المعروف بابن حنا المصري سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م ورأى ما يحدث استعظمه وأمر بقلع الجزعة فقلعت(٣).

---

(1) البتانوني: الرحلة الحجازية ص ٢٥٩.

(2) العياشي: الرحلة ص١٧٦.

(3) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ص٢٤١. السمهودي: وفاء الوفا ج١٠ ص٣٧٣.

Scanned by CamScanner

ومن العادات الاجتماعية خلال تلك الفترة ارتياد أهل المدينة المنورة والقادمين إليها للحمامات العامة التي انتشرت في داخل المدينة وخارجها بقصد الاستحمام والاسترخاء ويبدو أن الحمامات قد انتشرت في المدينة عقب عمارة المسجد النبوي الشريف سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م حيث أمر السلطان المملوكي قايتباي بعمارة حمام بالقرب من باب السلام (١).

= ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ص١٣٣.

(١) عبد الرحمن مديرس المديرس: المدينة المنورة في العصر المملوكي ص١٦٠، دراسة تاريخية - طأ - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. نقلاً عن السمهودي: وفاء الوفا ج٢ ص٦٤٤.

Scanned by CamScanner

الملابس والأطعمة والأشربة

أولاً: الملابس:

تمتعت مصر بشهرة كبيرة في فن صناعة النسيج منذ أقدم العصور واستمرت تلك النهضة خلال العصر المملوكي فقد اشتهرت بعض المدن المصرية بانتاج أنواع راقية من المنسوجات أصبحت تنسب إليها، وكانت موضع الإعجاب لجمالها وجودة صناعتها فكانت مدينة الاسكندرية تشتهر بإنتاج المنسوجات الكتانية الرقيقة التي يقال لها الشرب، وكانت لجودتها تباع بقيمة وزنها فضة [١].

كما اشتهرت مدينة تنيس والقرى المحيطة بها بصناعة أرقى أنواع النسيج من الشرب الرقيقة وكانت تنتج من خيوط الكتان نسيجًا رقيقًا يسمى القصب كانت تصنع منه العمائم وملابس النساء [٢] كما كانت تنتج البوقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار وكانت القرى المحيطة بتنيس مثل شطا تنسب إليها الملابس الشطوية الراقية وديبق التي اشتهرت بصناعة الثياب الديبقية المذهبة والعمائم الشرب الملونة والمذهبة التي تصل طول العمامة منها مائة ذراع تبلغ قيمة ما فيها منه ذهب خمسمائة دينار [٣] وكانت مدينة دمياط تختص بصناعة النسيج الأبيض الذي تبلغ قيمة الثوب من ثلاثمائة دينار [٤].

---

(1) المقريزي: الخطط ج١ ص١٦٣.

(2) المصدر السابق: ص ١٧٧.

(3) المصدر السابق ص ٢٢٦.

(4) آدم متزر: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٥٨.

Scanned by CamScanner

ونتيجة للتقارب الكبير والاتصال الدائم بين مصر والحجاز في العصر المملوكي عرفت المدينة المنورة ثيابًا جديدة من الحرير والكتان وأنواعًا براقة تتلألأ وتتغير ألوانها إذا انعكست عليها أشعة الشمس وكانت هذه الثياب ترد إليها في تجارتها مع مصر [١] وسكان المدينة كانوا على مر العصور يستحسنون لبس الثياب البيضاء التي تصنع في الغالب من الكتان أو القطن في فصل الصيف [٢] حيث روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " خلق الله الجنة بيضاء وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم " [٣].

لذا شاع استعمال الملابس البيضاء في بلاد الحجاز ومنها المدينة المنورة فقد ذكر ابن جبير أن الأمير مكثر بن عيسى الحسيني خرج كعادته عند بداية أول كل شهر هجري وهو يرتدى ثوبًا أبيض ويتعمم بعمامة صوف بيضاء رقيقة [٤].

أما في فصل الشتاء فكانوا يلبسون الثياب الصوفية بالإضافة إلى العمامة والبردة [٥].

ولقد اختلف اللباس لدى أهل المدينة حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعي فكل كان له لباسه الخاص، ومن هؤلاء الأمراء والقضاة والأئمة والخطباء ورؤساء المؤذنين والوجهاء وأصحاب الحرف والمهن المختلفة [٦].

---

(1) أحمد السباعي: تاريخ مكة ج١ ص٢١٧.

(2) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٦٨.

(3) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٢٨.

(4) ابن جبير: الرحلة ص٧٤.

(5) ابن جبير: الرحلة ص٧٩.

(6) عبد الرحمن مديرس: المدينة المنورة في العصر المملوكي ص١٥٤.

Scanned by CamScanner

وكان لباس المرأة في هذه الفترة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في الشتاء وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسدها وتحفظ ملابسها وتلف رأسها بمنديل تضعه فوق رقبتها [١]، أما سيدات الطبقة الراقية في الحجاز فقد غالين في التزين وارتداء أنواع الثياب المختلفة من الحرير، ويبدو أنه كان نوع من التمثل بسيدات الطبقة الراقية في مصر إذ يصف ابن جبير خروج نساء الطبقة الراقية في الحجاز لتأدية العمرة الرجبية بقوله: " قد امتلأت هوادج مشدودة على الإبل مكسوة بأنواع الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتألق ويحتفل بقدر استطاعته، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدى بقلائد رائعة المنظر من الحرير وغيره، ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليته الحسني عمة الأمير مكثر فإن أذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحابًا وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده " [٢].

أما ملابس أهل البادية فكانت تتكون من ثوب طويل الأكمام مفتوح من أحد طرفيه ومصنوع من قماش الدوت الأبيض يلف حوله حزام من الجلد الرفيع، وفي الشتاء يرتدى أهل البادية البشوت المصنوعة من أصواف وأوبار الإبل المحلاة بالحرير فوق العنق [٣].

---

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٢٩.

(2) ابن جبير: الرحلة ص١٠٧.

(3) حمد فهد القحطاني: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز ص٢٧٥.

Scanned by CamScanner

ثانيًا: الأطعمة والأشربة:

تميزت مصر على مر العصور بوفرة خيراتها وكثرة إنتاجها الزراعي والصناعي والحيواني والذي كان غالبًا ما يزيد عن حاجتها، فلم تبخل بخيراتها على جيرانها وقامت بسد حاجتهم من الغلال والأطعمة والصناعات الغذائية وخاصة بلاد الحجاز التي غلب الفقر على سكانها، فقد كان سكان الحجاز يعتمدون على الرعي أو كري الجمال أو بيع الماء واللبن أو الحطب أو بعض الثمار وكان طعامهم قليلاً وكانت وجباتهم لا تعتمد على كثير من أصناف الطعام، إلا أنه كان هناك بعض الأطعمة التي اشتهرت في المدينة المنورة مثل الهريسة وهي طعام يتكون من خليط القمح واللحم ويباع بالوزن ويوضع عليها السمن البلدي وأحيانًا يضاف إليها السكر في حالة رغبة الفرد أن يتناولها حلوة أو يوضع عليها السمن البلدي مع إضافة الملح إليها في حالة رغبته عدم تناولها حلوة والهريسة من الأكلات المهمة والمحببة عند كبار السن في المدينة المنورة[1] بالإضافة إلى أكلة الكبدة التي يكثر طالبوها في الفترة المسائية ويتم صنعها بأن تقطع الكبدة إلى قطع مستطيلة صغيرة وتوضع على صاج من الحديد أو النحاس الساخن على النار إلى أن تنضج وتقدم ساخنة [2].

ومما لاشك فيه أن هذا النوع من الأطعمة قد نقل إليها من مصر التي اشتهرت به في العصر المملوكي وكان أصحاب هذه الصناعة يسمون بالهرائسيين، وكان المحتسب وأعوانه في مصر يشرفون على صناعة هذه

---

(1) ياسين الحياري: صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة ص٢٦٩.

(2) المرجع السابق ص ٢٧٥.

Scanned by CamScanner

الأطعمة في الأسواق حتى لا يقوم الباعة بغشها ويلزمونهم بعملها طبقا للنسب المقررة[1].

وكان اللحم مادة أساسية في طعام أهل المدينة كما يذكر العياشي الذي يقول إن أهل المدينة كان لهم " ولوع وعزام بأكل اللحم زاعمين أنهم يستضرون بتركه لحرارة أبدانهم وينسبها ويبسها فيحصل لهم الترطيب به فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة حتى أن من نسائهم من لا يطبخ غداء ولا عشاء إلا أن يكون لحمًا " [2].

أما التمر فهو مادة أساسية في طعام أهل المدينة نظرًا لانتشار النخيل فيها وهو إما رطب يؤكل في وقته أو تمر يتم تخزينه ليؤكل طوال العام ويذكروا ابن بطوطة أنهم يأكلون التمر في سائر أوقات النهار ولذلك صحت أبدانهم وقلت منهم الأمراض والعاهات [3].

والمشروب الوطني في البلاد هو القهوة العربية التي تقدم للضيف ولكن دون مزجها بالسكر [4].

أما عن المياه في المدينة المنورة فقد كانت تقع في الجنوب الغربي فيها عين الزرقاء التي تستمد ماءها من عين تسمى الجعفرية وتتصل عين الزرقاء بآبار عديدة بواسطة قنوات تجري فيها مياه من الآبار حتى تختلط بماه عين الزرقاء وتسير في مجرى واحد ثم ينقسم هذا المجرى بدوره داخل المدينة

---

(1) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٣٦.
(2) العياشي: الرحلة ص٢٢٦.
(3) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٧٠.
(4) فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب ص ١٢٠.

Scanned by CamScanner

المنورة إلى ثلاثة قنوات تصب ماءها في ثلاثة خزانات رئيسة لإمداد أهل المدينة المنورة بالماء ولتأمين الماء للحجاج خاصة في فترة الزيارة [١].

وكان أهل المدينة يأخذون الماء من الآبار ويضعونه في أوان خزفية تسمى أزيارًا لتنقية المياه وتبريدها [٢].

(1) عائشة باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ص٨٩.

(2) فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب ص١٢١.

Scanned by CamScanner

اهتمام المماليك بإصلاحات المجلس النبوي

والحجرة النبوية الشريفة

يعد الاهتمام بإصلاح وتجديد المسجد النبوي والحجرة الشريفة من أجل الأعمال التي يطمع إليها الكثير من المسلمين تقربًا إلى الله عز وجل ولذا فإن المماليك لم يتوانوا عن العناية بالمسجد النبوي والحجرة الشريفة ففي زمن السلطان الظاهر بيبرس أرسلت كميات من الأخشاب والحديد والرصاص لعمارة المسجد النبوي بصحبة ثلاثة وخمسين صانعًا يشرف عليهم الأمير جمال الدين محسن الصالحي الذي كان يمدهم بكل ما يحتاجونه من الآلات والنفقات وبعد الانتهاء من العمل قاموا بوضع المنبر الذي أرسله الظاهر بيبرس واستمر هذا المنبر إلى سنة ٧٩٧هـ حيث وضع السلطان المملوكي الظاهر برقوق منبرًا آخر مكانه (١).

وأثناء تأدية بيبرس لفريضة الحج سنة ٦٦٧هـ أمر بعمل مقصورة على الحجرة النبوية الشريفة وجعل لهذه المقصورة ثلاثة أبواب قبليًا وشرقيًا وغربيًا(٢) وأرسل كسوة الحجرة النبوية مع زوجته والدة الملك السعيد بركه (٣).

أما السلطان المنصور قلاوون فقد شرع في بناء قبة فوق الحجرة النبوية الشريفة لتميز هذه الحجرة عن بقية المسجد ودهنت باللون الأزرق ثم غير لونها في زمن السلطان قايتباي إلى اللون الأخضر (٤).

---

(1) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٣٨٤.

(2) السمهودي: وفاء الوفا ج١ س٣٨٠.

(3) ابن عبد الظاهر: الروض الظاهر ص٣٥٣.

(4) منى عبد الغني المدينة المنورة: في العصر المملوكي ص١٠٧.

Scanned by CamScanner

واستمرت إصلاحات سلاطين المماليك في الحرم النبوي طوال فترة حكمهم ففي سنة ٦٩٤هـ زاد السلطان العادل كتبغا شباكا دائرا على المقصورة ورفعه حتى أوصله لسقف المسجد [١] وقد أعاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إصلاح سقف المسجد وأنشأ منارة رابعة وزاد رواقين من جهة القبلة على هيئة الأروقة القديمة، وكانوا متصلين بمؤخرة المسجد فاتسع سقف المسجد بهما وانتفع بها الناس بالإضافة إلى تجديد رواقين كانا على يمين صحن المسجد وشماله [٢].

وأمر السلطان الناصر حسن بتجديد قبة المسجد بسبب اختلال ألواح الرصاص عن وضعها وخيف عليها من كثرة الأمطار التي قد تؤثر فيها وزاد التجديد في زمن السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٥هـ [٣].

وفي زمن السلطان الأشرف برسباي أقفلت أبواب المقصورة وصار الزائرون ينتظرون من ورائها دون أن يدخل أحد فيهم إلى الحجرة النبوية الشريفة حتى ينزه المشهد الشريف من كثرة التلامس بالأيدى [٤] وأمر السلطان جقمق بعمل عدة إصلاحات في سقف الروضة وغيرها من سقف المسجد سنة ٨٥٣هـ وأشرف على الإصلاحات المعمارية الأمير بردبك الناصر [٥].

---

(1) السمهودي: وفاء الوفاء ج٢ ص٦٠٨.

(2) السخاوي: التحفة اللطيفة ج٣ ص٧٦٥.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء ج٢ ص٦٠٣.

(4) المصدر السابق ص ٦١٦.

(5) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٣٦٧.

Scanned by CamScanner

وقام السلطان برقوق بعمل عدة إصلاحات في الحرم ووضع منبرًا جديدًا في المسجد لكنه أزيل بالمنبر الذي أرسله المؤيد شيخ سنة ٨٢٢هـ واحترق في الحريق الثاني للمسجد النبوي سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م [١].

وعندما وصلت أخبار الحريق في المسجد النبوي وعلم بها السلطان قايتباي أصدر أوامره بتنظيف المسجد النبوي ورأى أن في ذلك شرفًا له وأنه كرامة من الله تعالى أكرمه بها فأصدر مرسومًا بأن يتوجه الأمير سنقر الجمالي بصحبة موكب الحاج ومعه أكثر من مائة عامل وصانع من البنائين والنجارين والنشارين بالإضافة إلى الدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخمين وغيرهم من الصناع كما أرسل معهم الكثير من الإبل والحمير وأرسل معهم المقر الأشرفي الشجاعي شاهين والأمير قاسم الفقيه شيخ الحرم الشريف ومعه عشرون ألف دينار وأمر بتجهيز الآلات والمؤن التي كثرت في الطور وينبع والمدينة [٢] وتولى العمارة آنذاك الجناب الخواجكي الشمس بن الزمن الذي قام بصرف جزء من أجور العمال قبل العمل ولقد قام هؤلاء الصناع بالعمارة في المسجد النبوي فهدموا المنارة التي أصابها الحريق وهدموا من سور المسجد من ركن المنارة التي بباب السلام إلى آخر جدار القبلة واستمر التعمير في المسجد النبوي حتى سنة ٨٨٨هـ [٣].

---

(1) السمهودي: وفاء الوفاء ج٢ ص٦١٨.

(2) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٥٠.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء ج٢ ص٦٤٥.

Scanned by CamScanner

الأوقاف والصدقات والعطايا على أهل المدينة المنورة

أكثر سلاطين المماليك الصدقات والعطايا والهبات والأوقاف على أهل المدينة المنورة فالسلطان المملوكي الظاهر بيبرس أصدر مرسومًا بحمل مائتي أردب غله في كل عام إلى المدينة المنورة [١] وأثناء تأديته لفريضة الحج قام بزيارة المدينة المنورة وأغدق العطايا على أهل المدينة وأمر بعمل الكسوة للحجرة النبوية الشريفة أرسلها مع أحد رجاله ومعها الشموع والبخور والطيب والزيت [٢] وأعطى القبائل من أهل البادية أعطيات جزيلة تركت آثارها الطيبة في حياة أهل المدينة [٣].

ومن الصدقات والأوقاف التي أفاضها السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون على أهل المدينة الكثير من المؤن في أوقات القحط وأمر بإسقاط المكوس والضرائب على المأكولات حيث كانت تجارة الطعام المتداولة آنذاك هي التجارة الأولى لأهل المدينة [٤] وأوقف على خدام الحرم النبوي الشريف قرية نقادة وسندبيس في مصر [٥].

وأورد ابن حبيب نص الوقفية التي جاء فيها ".... وكان ذلك وقفًا معروفًا ريعه للفقراء والمساكين المجاورين والمجاورات بالحرمين الشريفين

---

(1) ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص١٨٠.

(2) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص٣٥٣.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥٤.

منى عبد الغني: المدينة المنورة في العصر المملوكي ص١٢٠.

(4) ابن تعزي بردي: النجوم الزاهرة ج ٩ ص٥٩.

(5) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٦٣.

Scanned by CamScanner

حرم مكة وحرم المدينة مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف الناظر ريع ذلك إليهم على ما يراه من مساواة وتفضيل وإعطاء وحرمان إن شاء صرفه نقدًا من النقود أو قوتًا من الأقوات أو كسوة أو غير ذلك على ما يراه ويؤدي إليه اجتهاده " (١).

كما وقف السلطان الصالح إسماعيل بن السلطان الناصر محمد قرية بسوس فكان الثلثان من وقف هذه القرية لكسوة الكعبة الشريفة والثلث الثالث لكسوة الحجرة النبوية الشريفة والمنبر بالإضافة إلى أوقاف أخرى أوقفها السلطان الصالح إسماعيل لخدام المسجد النبوي الشريف (٢).

وكان للسلطان الأشرف شعبان مآثر حسنة في الحرمين الشريفين فقام بتقرير دروس في المذاهب الأربعة وفي الحديث وعمل مكتبًا للأيتام وأسقط المكوس عن أهل المدينة وعوض أمير المدينة عنها أموالاً كثيرة (٣).

وأرسل الظاهر برقوق آلاف الأرادب من القمح لمكافحة الغلاء والقحط بالمدينة(٤) واهتم المؤيد شيخ بقرى الوقف على المسجد النبوي والحجرة النبوية الشريفة(٥).

---

(1) ابن حبيب: تذكرة النبيه ج٢ ص٣٥٠ – ٣٥١.
(2) منى عبد الغني: المدينة المنورة في العصر المملوكي ص ١٢٣.
(3) المرجع السابق ص ١٢٥.
(4) منى عبد الغني: المدينة المنورة في العصر المملوكي ص ١٢٤.
(5) السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٣٦٧.

Scanned by CamScanner

أما السلطان جقمق فكان يرسل الدشيشة لأكل أهل الحرم [1] وأرسل السلطان المملوكي الأشرف إينال كسوة للحجرة النبوية الشريفة في العاشر من شوال سنة ٨٥٩هـ [2].

وحينما قام السلطان المملوكي قايتباي بزيارة المدينة المنورة سنة ٨٨٤هـ بعد أدائه لفريضة الحج فرق على أهل الحرم والمدينة أموالاً كثيرة تصل إلى ستة آلاف دينار وأمر بإلغاء المكوس وعوض أمير المدينة عنها ألف أردب من القمح في كل عام [3] ورتب لأهل السنة من أهل المدينة والواردين عليها من كبير وصغير وغني وفقير وخادم ما يكفيه من البر والدشيشه والخبز وحبس على ذلك أماكن وجهات يتحصل منها من الحب نحو سبعة آلاف أردب وخمسمائة تحمل كل سنة [4].

(1) المصدر السابق.
(2) ابن تغزي بردي: حوادث الدهور ج٢ ص٥٤٤.
(3) السمهودي: وفاء الوفاء ج٢ ص٧١٣.
(4) النهر والي: الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص١٠٦.

Scanned by CamScanner

المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات:

دحلان: أحمد بن زينى [ت/١٢٠٤هـ]

- تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية، مخطوط مصور تصويرًا شمسيًا بمكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

الطبري: محمد بن فضل بن عبد الله الطبري [ت/١١٧٣هـ]

- إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالمكيروفيلم رقم(١٤٣٣٣)، تاريخ تيمور برقم(٢٢٠٦).

ثانيا: المصادر المطبوعة:

ابن إياس: محمد بن أحمد [ت/٩٣٠هـ/١٥٢٤م]

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

بامخرمه: أبو محمد الطيب بن عبد الله [ت/٩٤٧هـ]

- تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، دار الجيل، بيروت.

ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد عبد الله اللواتى [ت/٧٠٣هـ]

- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق المنتصر الكتانى، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

Scanned by CamScanner

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف [ت/٨٧٤هـ]

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٣هـ/١٩٣٣م.

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، تحقيق محمد عبد العزيز، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد [ت/٦١٤هـ]

- رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الجزيرى: عبد القادر الأنصاري [ت/٩١١هـ]

- الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، الطبعة الأولي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار اليمامة، الرياض.

ابن حبيب: الحسن بن عمر [ت/٧٧٩هـ/١٣٧٧م]

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

ابن حجر العسقلانى: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على [ت/٨٥٢هـ]

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل،(د.ت)

ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد [ت/٤٥٦هـ]

- جمهرة أنساب العرب، تحقيق د/ عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

Scanned by CamScanner

الخروجي: أبو الحسن على بن الحسن [ت/٨١٢هـ/١٤٠٩م]

- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، مطبعة الهلال بالفجالة، ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

ابن خلدون: ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد [ت/ ٨٠٨هـ]

- تاريخ ابن خلدون المسمي العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

دحلان: أحمد بن زينى [ت/١٢٠٤هـ]

- خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

الذهبى: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد [ت/٧٤٨هـ]

- العبر فى خبر من عبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

السخاوى: محمد بن عبد الرحمن [ت/٩٠٣هـ]

- التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق أسعد طرابزونى الحسينى، القاهرة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت.

السمهودي: على بن عبد الله بن أحمد الحسنى [ت/٩١١هـ]

- الوفا بما يجب لحضرة المصطفى (من كتاب رسائل فى تاريخ المدينة) إشراف حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض،(د.ت).

Scanned by CamScanner

الشيزري: عبد الرحمن بن نصر [ت حوالي ٥٨٩هـ]

- نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك [ت/٧٦٤هـ]

- الوافي بالوفيات، ط فسبادن، ألمانيا الغربية، ١٣٩٤هـ.

ابن ظهيرة: جمال الدين محمد جاد الله

- الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، الطبعة الثانية، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، مطبعة عيسي البابي الحلبي بمصر.

ابن عبد الظاهر: محي الدين بن عبد الظاهر [ت/٦٩٢هـ]

- - الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، دار الرشد، الرياض(د.ت).

ابن عنبة: جمال الدين أحمد بن على الحسنى [ت/٨٢٨هـ]

- عمدة الطالب فى أنساب آل أبي طالب، الطبعة الثانية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، النجف.

العينى: بدر الدين محمد بن على [ت/٨٥٥هـ]

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق د/محمد أمين، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

Scanned by CamScanner

الفاسي: تقى الدين محمد بن أحمد [ت/٨٣٢هـ/١٤٢٨م]

- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، بيروت(د.ت)
- العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن فهد: محمد بن محمد الشهير بعمر [ت/٨٨٥هـ/١٤٨٠م]

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٨٣م.

ابن فهد: عز الدين عبد العزيز بن عمر [ت/٩٢٢هـ]

- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط أ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على [ت/٨٢١هـ]

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٢٢هـ/١٩١٤م.

الكتبي: محمد بن شاكر[ت/٧٦٤هـ]

- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت،(د.ت).

ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر[ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م]

- البداية والنهاية فى التاريخ، ط٢، ١٩٧٧م، مكتبة المعارف، بيروت.

Scanned by CamScanner

المقريزى: تقي الدين أحمد بن على [ت/٨٤٥هـ/١٤٤١م]

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج١، تحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الخطط المقريزية) دار صادر، بيروت،(د.ت)
- المقفى الكبير(تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) اختيار وتحقيق محمد اليعلاوى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط أ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك،ج ١ ق١، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.
- الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٥م.

النهروالي: قطب الدين محمد بن علاء الدين أحمد [ت/٩٩٠هـ/١٨٥٢م]

- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، القاهرة، المطبعة العثمانية، ١٣٠٣هـ.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب [ت/٧٣٢هـ/١٣٣٢م]

- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر [ت/٧٤٩هـ]

- تاريخ ابن الوردي، ج١-٢، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

Scanned by CamScanner

ثالثا: المراجع العربية والأجنبية المترجمة:

آدم متز:

- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري، الطبعة الثانية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

إبراهيم رفعت:

- مرآة الحرمين، ط أ- دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٣٤٤هـ-١٩٢٥م.

إبراهيم علي العياشي:

- المدينة بين الماضي والحاضر، دمشق ١٩٧٣م.

أحمد السباعي:

- تاريخ مكة، ج١ ط٥، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

أحمد ياسين أحمد الخياري:

- تاريخ معالم المدينة المنورة قديمًا وحديثًا ط ٣، ١٤١٢هـ /١٩٩١م، مطابع شركة دار العلم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولي ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

جميل حرب محمود حسين:

- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي ط أ ١٤٠٥/١٩٨٥م، جده.

حسن إبراهيم حسن:

(دكتور)

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٢م.

Scanned by CamScanner

حمد محمد القحطاني:

- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز ١٢٩٧-١٣٢٣هـ/ ١٨٨٠-١٩٠٥م، الطبعة الأولي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الكويت.

عائشة باقاسي:

- بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، الطبعة الأولي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار مكة للطباعة والنشر.

عاصم حمدان علي حمدان:

- حارة الأغوات (صورة أدبية للمدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري)، تقديم غازي عبيد مدني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ط أ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

عبد الرحمن مديرس المديرس:

- المدينة المنورة في العصر المملوكي، الطبعة الأولي {١٤٢٢هـ/٢٠٠١م} مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض.

فؤاد حمزة:

- قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية {١٣٨٨هـ/١٩٦٨م} مكتبة النصر الحديثة، الرياض.

محمد جمال الدين سرور:

- سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي {١٣٩٣هـ/١٩٧٣م}.

محمد لبيب التيانوني:

- الرحلة الحجازية، مكتبة المعارف، الطائف.

Scanned by CamScanner

(دكتور)

مني عبد الغني

- المدينة المنورة في العصر المملوكي، مصر للخدمات العلمية، القاهرة، ١٩٩٩م.

رابعًا: الدوريات:

عبد الحق نقشيندي:

- مأساة المدينة المنورة (مقال في مجلة المنهل) ج٥ مجلد ٢٣ عدد جمادي الأولي ١٣٨٢هـ/ أكتوبر ١٩٦٢م

خامسًا: المراجع غير المترجمة:

1- Esin Emel: Mecca the Blessed Madinah the Radiant. (Italy 1976)

2- De, Gaury, Gerald: Rulers of Mecca (first published.1951)

3- Hogarth (D.G) A History of Arabia Clarendom press. (oxford 1922)

4- Nicholson, prof. Reynold: A literary History of the Arabs, (London, 1914, Cambridge 1930)

5- Stanly Lane poole: A History of Egypt in the Middle Ages (London 1901)

Scanned by CamScanner